آفات الإصلاح والنهضة –1
الادعاء (التكاذب)

بقلم د.المصطفى حجازي- مفكر مصري

عند الحديث عن آفات الإصلاح والنهضة يلزمنا أن نؤسس للمبادئ الحاكمة (أو لبعض المبادئ الحاكمة) فى هذه المنظومة الإنسانية، وهي المبادئ التى يزول حال زوالها أى أمل فى إصلاح حقيقي ناجز للمجتمعات.

وما كانت تلك المبادئ لتزول إلا بسقوط المجتمع فى براثن آفات تنمو فى وحشة غياب قيم الحرية والعدالة والكرامة وتتغول وتهيمن تحت نير الاستسلام للقهر وفى ظل استئناس العيش دون مقومات الإنسانية.

تلك الآفات كفيلة بأن تَبْتذل ما يثمر من فكر وتُجهضُ ما يُبذَل من جهد وتُصادِرُ الآمال المحركة للطاقات والدافعة للقدرات، مما ينتهى حتماً إلى تحلل منظومة الإصلاح ذاتياً دون أدنى مواجهة مع قوى الإفساد.

والمبدأ الذى نؤسس له كمدخل تحليلى لموضوع هذا المبحث – هو "أهلية" المتصدين للفعل الإصلاحى أو النهضوى قيادة أو دعماً. فنبدأ بالتأكيد أن "الكفاءة" هي شطر "الأهلية". و"الكفاءة" بخلاف مكون "الأحقية"- شطر الأهلية الآخر والمكتسب بالانتماء للمجتمع بالمولد والنشأة أو برباط الدم دون مولد أو نشأة فى ذات المجتمع– هي الركيزة التي تنمو فى رحم صراعات حياتية حقيقية تكرس قيمة من أعلى القيم الإنسانية ألا وهي العدالة.

ومن ثم نؤصل الحقيقة الأهم وهي كون الأهلية المؤسس الأو حد لشرعية القيادة غير المدعاه للمجتمعات ودونها يصير الأمر اغتصاباً لحق المجتمع فى قيادة مستحقة تنمو من نسيجه الذاتى. هذه القيادة المستحقة هي وحدها القادرة أن تستجلي الأفق أمام مجتمعها وتكفيه خطر التيه والسقوط فى أجندات قيادات جماعات إنسانية أخرى حوله ستسعى حتماً إلى ملء فراغ قيادته المغتصبة أو المدعية– إحلالاً –ومن ثم تنزع عنه إنسانيته بإجهاض قدراته على خوض صراعات الترقي والبقاء الإنساني . فبغياب عنصر الأحقية عن المتصدي لفعل مجتمعى ما - حتى وإن ثبتت كفاءته - يصير الأمر اغتصاباً لحق كما أسلفنا، أما إن غابت الكفاءة وبقيت الأحقية صار الأمر ادعاءاً بالباطل، أى إضلالاً، وهو ما نتناول أبعاده تحليلاً فى هذا البحث.

وبناء على أن الأهلية هي المؤسس الأوحد لمشروعية القيادة، ما كان ليستغرب أن يحارب الجالسون على سدة الحكم أو الإدارة فى مجتمعات القهر والفوضى أصحاب الكفاءة، لما تمثله كفاءة هؤلاء من خطر تسويغ وتأسيس لريادة وقيادة منافسه بشرعية الأهلية.

ومن أكثر وسائل الحرب شيوعاً على ذوى الأهلية، هي دعم محدودى الكفاءة - غير محدودي الطموح- بكل الأشكال غير المباشرة وفي كثيرمن الأحيان بشكل مباشر فج، بغية أن يستنزف هؤلاء طاقة الحلم لدى أبناء المجتمعات بملئهم أفق الحلم بسراب وصخب يحول دون رؤية سمات القيادة الحقيقية التى يصبون إليها ويتلمسون هديها.

ولكن السؤال الملح هو كيف لمن يوصفون بمحدودية الكفاءة أن يصيروا خطراً، بل الخطر المحدق على منظومة إنسانية يفترض أن يعجزوا عن التعامل مع أدواتها أو القيام بحقها؟!

نجد الإجابة المنطقية فى دراستنا لنسق حركتهم الحياتية والخلفية الفكرية التى يستندون إليها والتى تعلي من شأن الفعل قبل الفكر– إلى درجة السقوط فى غواية الحركة – والكفر بضرورة التحليل السابق للفعل والحركة باعتباره إهداراً للوقت. وهي كما نرى صفات ترسم ملامح الحمق كإطار مسيطر على فكرهم وفعلهم. وإن كان من المأثور أن لكل داء دواء يستطب به - إلا الحماقة قد أعيت من يداويها فذلك برهان منطقي أول، كما أن بريق الطموح وما يورثه من هوى نفس قد يورد المهالك إذا كان مسلكاً لنفاق أورياء

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2004

فيصيروا كمن "قيل لهم لا تفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون".

فهؤلاء الطامحون المدَّعون للقيام على أمر الإصلاح يعلمون– فى داخلهم - محدودية كفاءتهم ويعمدوا إلى ملء فجوة القدرات الغائبة - واللازمة إلى تبوؤ مواقع قيادية إصلاحية فى مجتمعاتهم- بقدر عال من الصخب والإعلام والإعلان. وفى معرض صخبهم يعمدون إلى النيل من مبادئ الفكر والبحث كقيم نهضة - وذلك بإقحام أنفسهم على منتديات الفكر والبحث وتحويلها إلى تجمعات اجتماعية ضحلة (تناسب طبائعهم وميولهم)، لا تخلو تماماً من ملمح حديث عن فكر ولا تخلو من جدية مفتعلة وإن كان واقعها هو تجهيز مسارح أحداث يتبوؤن فيها أماكن الصدارة. يجترئ هؤلاء المدعون على منظومة الإصلاح فلا يرضون لأنفسهم بمساحة الصدراة بديلاً.

فحرصهم دائم على أن يكونوا أصحاب الدعوة إلى تلك المنتديات وأن يجمعوا فى إطارها أكبر عدد ممكن من الشرفاء المتصدين لقضية الإصلاح بحق، بغرض إسباغ الشرعية على منتدياتهم تلك، خصماً من شرعية تاريخ وشرف هؤلاء المصلحين الحقيقيين. وعادة ما يراد لتلك المنتديات أن تكون دوائر غير متقاطعة حتى يكون الإيحاء والإيهام زوراً بأنهم مجَمِّعو الأطياف وصانعو التعاون. فعلى الرغم من كونهم ليسوا أكثر من أصحاب دعوة اجتماعية يلتئم مرتادوها على خلفية المجاملة أكثر من خلفية التوافق الفكرى أو الحركى فيعمد هؤلاء المدعون إلى تصدير وهم كونهم أثيرين على كل دائرة مقابل الأخرى بل ويذهبون إلى ادعاء اصطفائهم لموضع كاتم السر والمشارك فى قرار كل طيف إصلاحي حل ضيفاً على دوائرهم.

وهنا يكتمل ملمح الزيف والإيهام المعد له فى كل تحركاتهم فى المجتمع طولاً وعرضاً، فيبدو للسامع والمشاهد أنهم القاسم المشترك والحاضر الدائم على دوائر قيادات الفكر والفعل الإصلاحى ويأتى الفعل إلى محطته الأخيرة وهو الإشاحة عن عنوان مشروع اجتماعى يدعى له صفة الجمع والتواصل بين كل الأطياف ومن ثم التصدى لكل احتياجات الإصلاح وتبدأ المطالبة بحق التواجد بل والقيادة فى مجال الإصلاح ولم لا وقد جهزت الساحه بتؤدة كما أسلفنا. وهنا يصبح المنطق الغالب بأن من حضر القسمة فليقتسم كما لو كان مستقبل المجتمعات غنيمة، تلك منطقية مشروعيتهم فى التصدي للإصلاح ولتذهب قضية الأهلية إلى الجحيم فهي هنا فى هذه اللحظة لا يحتج عليهم بها فهم الأكثر حضوراً والأكثر صخباً.

وإن كان ما سبق هو كتلة جبل الجليد الغائبة عن مرأى المجتمع، فقمته البادية هي ما يراه المجتمع من إغداقهم للدعم المادي المعلن لتجمعات العمل الأهلي والتطوعي بل إظهار دائم الشغف بالموضوعات القيمة المطروحة فيها وأدوات العمل الخاصة بها. ولا يمضي كثير من الوقت حتى يتحول هؤلاء – كما أرادوا- إلى الأسماء الأكثر ارتباطاً بمنتديات الفكر والبحث وهيئات العمل التطوعى. وهو ارتباط بشكل تلك التجمعات وليس بمضمون قيم الفكر أو البحث أو العمل القائمة فيها.

ورغم بعد البون بين الشكل والمضمون فهو فارق ليس بالسهل استجلاؤه فهو دائما ملتبس على معظم أطياف المجتمع. وكيف يتسنى لأبناء المجتمع كشف ذلك الزيف وهم فى حالة بحث حثيث ودائم عن قادة منهم يتلمسون الهدى والوجهة على أيديهم، وهي مهمة لو نعلم شاقة وبخاصة فى مجتمعات حل غيم الفساد على الرؤى وكلت القوى تحت مطرقة قهره.

فحين ينصب هؤلاء المدعون أنفسهم – محدودي الكفاءة وغير محدودي الطموح – على تلك المنتديات الإصلاحية قادة بالزور مستندين إلى شرعية صخب التواجد ونذر الدعم المادى والالتصاق زورا بكل القوى الشريفة فى المجتمع، لا يجد أبناء المجتمعات أنفسهم إلا صرعى إبهارهم وآمالهم الزائفة بجنة إصلاح موعودة ستأتي دون مشقة. ولا يغيب عن مشهد سحر أعين الناس جهد مغلف بملامح التقوى وهو الذى يسترهب هؤلاء البسطاء ويجعل فعل هذا السحر عظيماً.

وتصير المشكلة الحقيقية فى هذه المجتمعات ليست فى تبوؤ هؤلاء لمواقع ليسوا أهلاً لها فحسب – وهو الكفيل بتخريب أي منظومة حياتية كما نستطيع أن ندلل على ذلك منطقياً وتاريخياً - ولكن الخطر الداهم والحقيقى هو أن بابتذال

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA® Copyright © 2004

هـؤلاء لقـيم الفكـر تضـحيلاً، يكرسـون لـدى المجتمعـات مبـاديء الادعـاء والتكـاذب حيـث يصيرون مثلاً أعلى لمنطلقى الطموح قليلو الهمم وهم كثر فى المجتمعات التى لازالت فى بداية دورات إصـلاح أو ترقـي. كمـا أنهـم يجهضـون الشعور بإلحاح الصراع والعمل من أجل الترقي، بملئهم ادعاءً لمواقع تحتاجها النهضة فيعينون شرائح أخرى فى المجتمع إلى الدعة والتواكل.

وكمـا نـرى فـى كـل مـا سـلف مـا يكفـي لجعـل أصحاب الادعاء هم الحليف المرتجى غير المعلن والأولـى بـدعم قـوى الإفسـاد أو مكبلـو انطـلاق المجتمعات نحو حقها فى مقومات الإنسانية من القـائمين علـى أمرهـا، المسـتفيدين مـن تنـازل المجتمعات تغييباً وقهراً عن حقوقها فى الحرية والعدالة والكرامة.

كان ما سبق حديث عن آفة كفيلة بأن تجتث أمل الإصـلاح – المـراوغ أصـلاً – فـى مجتمعاتنـا العربيـة والإسـلامية، يسـتطيع القـائمين علـى أمـر الإصلاح والآملين فيه مواجهتها

- بتأصيل قيمة الأهلية كأساس لمشروعية القيادة وتفويـت الفرصـة علـى هـؤلاء المـدعين بعـدم دعـم خطـواتهم الفارغـة والهدامـة – بعـد اسـتجلاء نسـق حـركتهم الـذى أصـلنا لـه فيمـا سبق-
- وألا يعطـوا علمـاً أو شـرعية يـديرها هـؤلاء بسفاهتهم سلاحاً فـى نحـر المجتمـع "ولا تؤتـوا السفهاء أموالكم"،
- وأخيراً بأن نـوقن جميعاً بـأن قضـايا الإصـلاح والنهضة هي ملك المجتمعات التـى تـأتي تلك النهضـة بمسـتقبلها وكرامتهـا فـلا يقبـل فيهـا تهـاون فـى أمـر أهليـة أو تقديم مـن لا يسـتحق على خلفية صداقة أو قرابة أو محبة فما تبدي صـدق مشـاعر الفقهـاء العظـام تجـاه بعضـهم البعض – وهم مثـال تـاريخي نقـي للمصـلحين والمفكـرين – إلا فـى إقـرارهم كمـا قـالوا "أن شيخ الإسلام حبيب إلينا ولكن الحق أحـب إلينـا منه".

معانى من كتاب "الجرأة على الحلم"– المصطفى حجازى

From the Book 'Dare to Dream' Book by E.M.Higazy

All copy rights and Intellectual Property rights for the methodology and concepts used in this are reserved by SQUARE Institute for Strategic Thinking, ACME Corp-EMENA ® Copyright © 2004